الباب الأول

السيرة النبوية

حياة النبي ﷺ خير البشر

ولد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بشعب بني هاشم بمكة المكرمة في صبيحة التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل[1] ولأربعين سنة خلت من ملك كسري أنوشروان، ويوافق ذلك عشرين أو إثنين وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري رحمه الله[2].

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام. وروى أحمد والدارمي وغيرهما قريبًا من ذلك[3].

وقد روى أن إرهاصات وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وأنهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت، روى ذلك الطبري والبيهقي وغيرهما[4] ـ وليس له إسناد ثابت، ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشرًا ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له[5] واختار له إسم محمد ـ وهذا الإسم لم يكن معرفًا في العرب ـ وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون[6].

وأول من أرضعته من المراضع ـ وذلك بعد أمه ﷺ بأسبوع[7] ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له: مسروح وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا

---

(١) انظر: نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام ص ٢٨-٣٥ لمحمود باشا الفلكي، ط بيروت.

(٢) ٢٠ إبريل حسب التقويم الميلادي القديم ٢٢ إبريل حسب التقويم الميلادي الجديد وللتفصيل أنظر: رحمة للعالمين ١/ ٣٨، ٣٩، ٢/ ٣٦٠، ٣٦١.

(٣) سند أحمد ٤/ ١٢٧، ١٢٨، ١٨٥، ٥/ ٢٦٢، وسنن الدارمي ١/ ٩ وابن سعد ١/ ١٠٢.

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقي، ١/ ١٢٦، ١٢٧، وتاريخ الطبري ٢/ ١٦٦، ١٦٧ والبداية والنهاية ٢/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٥) ابن هشام ١/ ١٥٩، ١٦٠ وتاريخ الطبري ٢/ ١٥٧، وابن سعد ١/ ١٠٣.

(٦) يقال: إنه ولد مختونًا، (تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤) وقال ابن القيم: ليس فيه حديث ثابت. أنظر زاد الميعاد ١/ ١٨.

(٧) إتحاف الوري ١/ ٥٧.

سلمة بن عبد الأسد المخزومي[1] وكانت العادة عند الحضر من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعادًا لهم عن أمراض الحواضر، ولتقوى أجسامهم، ويشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع، واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، وهي حليمة السعدية.

حادث شق الصدر: روى مسلم عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتاه خبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فأستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمة ـ أي جمعه وضم بعضه إلى بعض ـ ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره[2] فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ـ أى متغير اللون ـ قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[3].

قضية التحكيم في وضع الحجر الأسود: ولخمس وثلاثون سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة، وذلك لأن مكة تعرضت لسيل عرم الذي إنحدر إلى البيت الحرام وباعتبارها أثرًا قديمًا أدهت بنيانها وصدعت جدرانها فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، وأشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أميه بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه وشاء الله أن يكون ذلك هو رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناه هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداءًا فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعون أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه، وهذا حل حصيف رضى به القوم.

وكان ﷺ قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات وكان طرازًا رفيعًا من

---

(١) صحيح البخاري ح (٢٦٤٥، ٥١٠٠، ١-٥١، ٦-٥١، ٧-٥١، ٥٣٧٢) أو تاريخ الطبري ٢/ ١٥٨ وفي سنده مقال، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ١٥٧.

(٢) الظئر: هي المرضعة، وربما يطلق على زوجها أيضًا.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء ١/ ١٤٧ ح (٢٦١).

الفكر الصائب والنظر السديد وحسن الفطنة ثم عاشر الناس على بصيرة من أمرهم، فما وجد عملا حسنًا إلا شارك فيه[1] وإلا عاد إلى عزلته فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيدًا ولا احتفالًا بل كان من أول نشأته نافرًا من هذه المعبودات الباطلة وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة، فكان أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا، وأعزهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عريكة وأعفهم نفسًا وأكرمهم خيرًا، وأبرهم عملًا، وأوفاهم عهدًا وآمنهم أمانةً حتى سماه قومه: "الأمين" وكان كما قالت خديجة رضي الله عنها: يحمل الكل ويكسب المعدوم، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق[2].

في غار حراء: لما تقاربت سنة ﷺ الأربعين حبب إليه الخلاء فكان يأخذ السويق والماء، ويذهب إلى غار حراء في جبل النور وكان اختياره لهذه العزلة طرفًا من تدبير الله له، وكانت قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ولما تكامل له أربعون سنة ـ وهي رأس الكمال، وقيل: ولها تبعث الرسل ـ بدأت طلائع النبوة تلوح وتلمع، فمن ذلك أن حجرًا بمكة كان يسلم عليه ومنها أنه كان يرى الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ولما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بغار حراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن[3] وذلك يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من رمضان ليلًا وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية.

نزول جبريل بالوحي: تقول عائشة رضي الله عنها أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتعبد، حتى جاءه الحق، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ قال: "فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فأخذني

---

(١) صحيح البخاري ح (١٥٨٢)، وفتح الباري ٣/ ٥١٣، وح (٣٨٢٩) ٧٠/ ١٨٠ وأنظر أيضًا فتح الباري ٣/ ٥١٧، ومسند أحمد ٣/ ٢٩٥، ٣١٠، ٣٣٣، ٣٨٠.

(٢) صحيح البخاري ح (٣).

(٣) قال بن حجر: وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول، بعد إكماله أربعين سنة وإبتداء وحي اليقظة في رمضان (فتح الباري) ١/ ٢٧.

فغطني الثالثة ثم أرسلني، فرجع بها رسول الله ﷺ يرتجف فؤاده فقال ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾[1] فدخل على السيدة خديجة فقال: "زملوني، زملوني" فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقالت خديجة: "مالك" فأخبرها الخبر، "لقد خشيت على نفسي" فقالت خديجة رضي الله عنها: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق[2].

أقسام الوحي ومراتبه: [كما قال ابن القيم]

الأول: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ.

الثانية: ما كان يلقيه الملك من روعة في قلبه من غير أن يراه..

الثالثة: إنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

الرابعة: إنه كان يأتيه في مثل صلصة الجرس، وكان أشد عليه، فيلتبس به الملك، حتى أن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

الخامسة: إنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن ـ وثبوتها لنبينا ﷺ في حديث الإسراء.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة، وهي تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب.

---

(١) العلق: ١: ٣.

(٢) الكل: الثقيل ومنها الإنفاق على الضعيف واليتيم، كسب المعدوم ـ وهو إعطاء الفقير.

السابقين الأولين إلى الإسلام:

زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاة زيد بن حارثة ـ وابن عمه على بن أبي طالب، وكان صبيًا يعيش في كفالة الرسول ﷺ، وصديقه الحميم أبو بكر الصديق.

أسلم هؤلاء في أول يوم الدعوة. ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام وكان رجلًا مألفًا محببًا سهلًا ذا خلق، ومعروف، وكان رجال قومه يألفونه فأسلم بدعوته عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدى، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبد الله التميمي ـ فكان هؤلاء الثمانية هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام. ثم تلا هؤلاء أمين الأمة أبو عبيده بن الجراح من بني الحارث وأبو سلمة المخزومي، وامرأته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي وعثمان بن مظعون الجُمحي وأخواه قدامه وعبد الله، وعبيده بن الحارث ابن عبد المطلب وسعيد بن زيد العدوي وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وخباب بن الأرت التميمي وجعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس وعدد غيرهم وكلهم من بطون وأفخاذ شتى من قريش. ومن غير قريش وأيضًا من النساء إلى أو وصلوا إلى مائة وثلاثين رجلًا وامرأة كلهم أسلموا قبل الجهر بالدعوة.

الصلاة:

من أوائل ما نزل من الأحكام الأمر بالصلاة وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، ومرت ثلاث سنوات والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد ولم يجهر بها النبي ﷺ إلى أن نزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنة الدعوة، ومجابهة الباطل بالحسنى وأول ما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1] " دعاء رسول الله ﷺ عشيرته من بني هاشم بعد نزول هذه الآية فقال أبو طالب: ما أحب الينا معاونتك وأشد تصديقًا لحديثك وهؤلاء بنوا أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به. فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

على جبل الصفا:

بعد تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته وهو يُبلّغ عن ربه، صعد النبي ﷺ ذات يوم على الصفا، فعلا أعلاها حجرًا، ثم هتف ينادي بطون قريش. ويدعوهم: "يا بني فهر، يا بني عبد مناف يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب" فلما اجتمعوا قال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟" قالوا نعم، ما جربنا عليك كذبًا قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله" ثم جعل ينادي: يا صاحباه "ثم دعاهم إلى الحق وأنذرهم من عذاب الله، فخص وعم فقال" يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا. ولا أغني عنكم من الله شيئًا.

يا بني كعب بن لؤى، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بني قصى، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد شمس يا بني هاشم يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا يا صفيه بنت عبد المطلب عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا. يا فاطمة بنت محمد رسول الله، أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرًا ولا نفعًا ولا أغني عنك من الله شيئًا ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] فقام رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونواديهم ويتلو عليهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[2] وكان يصلي في فناء الكعبة نهارًا جهارًا وعلى رءوس الأشهاد.

واتخذت قريش أساليب شتى لمجابهة الدعوة سواء بالسخرية والتحقير والاستهزاء والتكذيب والتضحيك وإثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة وكانوا يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام ولما زادت الإعتداءات على المسلمين وأخذوا يفكرون في حيلة تنجيهم من المشركين في مكة وفي هذه الظروف نزلت سورة الزمر تشير

---

(١) الحجر: ٩٤.

(٢) الأعراف: ٥٩.

إلى إتخاذ سبيل الهجرة قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتن[2] وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة إثنى عشر رجلًا وأربع نسوة ثم كانت الهجرة الثانية ثلاثة وثمانون رجلًا وثماني عشرة أو تسع عشرة إمرأة.

وخلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان ظهر بريق أضاء الطريق، هو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وكان في السنة السادسة من الهجرة ثم إسلام عمر بن الخطاب بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضي الله عنه.

المقاطعة:

زادت حيرة المشركين إذ نفذت بهم الحيل إلى أن تحالفوا على بني هاشم وبني عبد المطلب ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق وعلقت في جوف الكعبة ثم حاصروا المسلمين في شعب أبي طالب ثلاثة أعوام وفي المحرم[3] سنة عشر من النبوة نقضت الصحيفة وفك الحصار وكان الله تعالى قد أطلع رسوله ﷺ على أمر الصحيفة وأنه أرسل عليها الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل فأخبر ﷺ عمه ولما عاينوا الصحيفة وجدوها كما قال وهو الصادق وبعد الخروج من الحصار بستة أشهر كانت وفاة أبي طالب ثم وفاة السيدة خديجة بعده بثلاثة أيام وقيل بعده بشهرين وسمي هذا العام، عام الحزن، وفي شوال سنة عشر من النبوة خرج النبي ﷺ إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة وأقام ﷺ في الطائف عشرة أيامن لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه فقالوا اخرج من بلادنا وأغروا به سفهائهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ورجموا عواقبه حتى اختضب نعلاه بالدماء ثم لجأ إلى الله تعالى يقول "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس،

---

(١) الزمر: ١٠.

(٢) انظر: السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٩.

(٣) انظر زاد الميعاد ١/ ٢٤.

يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل على سخطك، لك العُتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك". ورجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الطائف كئيبًا محزونًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين عليهم ـ والأخشبين هما الجبلان، قال النبي ﷺ: "بل أرجو أن يخرج الله ـ عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يُشرك به شيئًا.

وفي موسم الحج سنة ١١ من النبوة مر رسول الله ﷺ بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج فلما لحقهم قال: "أفلا تجلسون أكلمكم؟ "قالوا: بلى، فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وكانوا من عقلاء يثرب ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر رسول الله ﷺ[1].

الإسراء والمعراج:

قال ابن القيم: أُسرى برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا البُراق، صحبه جبريل عليهما الصلاة والسلام فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إمامًا وربط البراق بحلقة باب المسجد. ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا فرأى آدم أبا البشر فسلم عليه ثم عرج به إلى السماء الثانية فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم فسلم عليهما ثم عرج به إلى السماء الثالثة فرأى فيها يوسف فسلم عليه ثم عُرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس، فسلم عليه ثم عُرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران فسلم عليه ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقى فيها موسى بن عمران فسلم عليه، ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقى فيها إبراهيم عليه السلام فسلم عليه، ثم رفع إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، ثم

---

(١) إبن هشام ١/ ٤٢٨ - ٤٣٠.

غشيها فراش من ذهب، ونور وألوان، فتغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها ثم رُفع إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون ثم أُدخل الجنة، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك، وعُرج به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام.

ثم عُرج به إلى الجبار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة فسأل ربه التخفيف حتى جعلها خمسًا وفي سنة ١٢ من النبوة في موسم الحج جاء اثنا عشر رجلًا من أهل يثرب التقوا برسول الله ﷺ عند العقبة في "منى" روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: "تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه" وتمت البيعة ثم بعث رسول الله معهم أول سفير إلى يثرب ليعلم المسلمين شرائع الإسلام" مُصعب بن عُمير العبدري" رضي الله عنه.

وفي موسم الحج، في السنة الثالثة عشرة من النبوة وفي أوسط أيام التشريق تمت بيعة العقبة الثانية بين رسول الله ﷺ وبين ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان وبنود المبايعة: روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلًا. قال جابر: قلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن تقوموا في الله، ولا تأخذكم في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة" وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ أن يختاروا إثنا عشر نقيبًا يكونون زعماء على قومهم ولما تم الإختيار أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقًا آخر بصفتهم مسئولون قال لهم: "أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي" يعني المسلمين ـ قالوا نعم[1] وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة ـ فهاجر من هاجر قِبَل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة.

---

(١) ابن هشام ١/ ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦.

في دار الندوة "برلمان قريش":

ولما رأى المشركون أن أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج أصابتهم الكآبة والحزن وساورهم القلق، فصاروا يبحثون عن أنجح الوسائل لدفع هذا الخطر، وبعد شهرين ونصف تقريبًا من بيعة العقبة الكبرى ـ عقد برلمان مكة (دار الندوة) وأجمعوا على قتل النبي ﷺ ودبروا لذلك ولكن الله غالب على أمره فقد نزل جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ بوحي من ربه تبارك وتعالى فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة وفي الوقت المحدد خرج ﷺ من البيت، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1] ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه وارتحل معهما عامر بن فهيرة ـ وأخذ بهم الدليل ـ عبد الله بن أريقط ـ على طريق الساحل.

إلى هنا أنتهى بيان قسم من حياته ﷺ بعد النبوة وهو العهد المكي.

---

(١) يس: ٩.

هجرة النبي ﷺ

ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وارتحل معهما عامر بن فُهيرة وأخذ بهم الدليل عبد الله بن أُريْقط على طريق الساحل، ولكن أول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه اتجه إلى الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غربا نحو الساحل، حتى إذا وصلوا إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، وسلك طريقا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرا.

النزول بقباء: في ربيع الأول سنة ١ هـ الموافق ٦٢٢م:

كانت المدينة كلها قد زحفت لاستقبال النبي ﷺ وكان يوما مشهودا، لم تشهد المدينة مثله في تاريخها نزل رسول الله ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم وقيل: بل على سعد بن خيثمة، والأول أثبت، فأقام بها أربعة[١] أيام أسس مسجد قباء وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى، ولما كان اليوم الخامس ركب بأمر الله له وسار نحو المدينة، وأدركته الجمعة فصلى في المسجد الذي في بطن الوادي[٢].

الدخول في المدينة:

بعد صلاة الجمعة سار النبي ﷺ حتى دخل المدينة (يثرب) ومن ذلك اليوم سُميت مدينة رسول الله وكان يوما مشهودا أغّر.

أما الأنصار فكان كل واحد منهم يتمنى أن ينزل رسول الله ﷺ، عليه ويأخذوا بخطام راحلته فكان يقول لهم: "خلوّا سبيلها فإنها مأمورة"[٣] فلم تزل سائرة حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلا ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول "المرء مع رحله" وأخذ أسعد بن زرارة بزمام راحلته فكانت عنده[٤].

---

(١) أنظر ابن هشام ١/ ٤٩٤، وزاد المعاد ٢/ ٥٥.

(٢) البخاري ١/ ٥٥٥، ٥٦٠.

(٣) الرحيق المختوم للمباركفوري.

(٤) زاد المعاد ٢/ ٥٥.

مراحل الدعوة والجهاد في العهد المدني

يمكن تقسيم العهد المدني إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تأسيس المجتمع الإسلامي وتمكين الدعوة:

وقد أُثيرت في هذه المرحلة القلاقل والفتن من الداخل وزحف فيها الأعداء من الخارج؛ ليستأصلوا شأفة المسلمين، وقد انتهت هذه المرحلة بتغلب المسلمين وسيطرتهم على الموقف مع عقد صلح الحديبية سنة ٦ هـ.

المرحلة الثانية: الصلح مع العدو الأكبر:

وذلك للفراغ لدعوة ملوك الأرض إلى الإسلام والقضاء على أطراف المؤامرات، وقد انتهت هذه المرحلة بفتح مكة سنة ٨ هـ.

المرحلة الثالثة: استقبال الوفود ودخول الناس في دين الله أفواجا:

وقد امتدت هذه المرحلة إلى وفاة النبي ﷺ في ربيع الأول سنة ١١ هـ.

سكان المدينة وأحوالهم عند الهجرة:

لم يكن معنى الهجرة التخلص والفرار من الفتنة فحسب بل كانت الهجرة تعني إقامة مجتمع جديد في بلد آمن، ولا شك أن رسول الله ﷺ، كان هو الإمام والقائد والهادي في بناء هذا المجتمع، والذين قابلهم النبي ﷺ في المدينة هم ثلاثة أصناف:

١- أصحاب الصفوة الكرام البررة رضي الله عنهم (المسلمون)

٢- المشركون الذين لم يؤمنوا بعد، وهم من صميم قبائل المدينة.

٣- اليهود.

القسم الأول: وهم المسلمون فكانوا قسمين: الأنصار والمهاجرين:

أما الأنصار: فكانوا في أرضهم وديارهم وأموالهم، ولكن كان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد.

وأما المهاجرين: فقد نجوا بأنفسهم إلى المدينة، فلم يكن لهم ملجأ يأوون إليه، ولا عمل يكسبون منه، وكان عددهم غير قليل.

القسم الثاني: المشركون: وهم من صميم قبائل المدينة: فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين، وكان منهم من يتردد في ترك دين الآباء، ومنهم من يُبطن العداوة ضد رسول الله ﷺ، ولكنه مضطر إلى إظهار الودّ وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أُبيّ، فقد اجتمع الأوس والخزرج على أن يتوجوه ملكا على أهل المدينة وفوجيء بمجيء رسول الله ﷺ، وانصراف قومه عنه إليه، فكان يبطن شديد العداوة ضده ،ولما رأى أنه سوف يُحرم بقايا العز والشرف أظهر الإسلام بعد غزوة بدر، ولكنه بقى مستبطنا الكفر فكان لا يجد مجالا يكيد فيه لرسول الله ﷺ وللمسلمين إلا ويأتيه.

القسم الثالث: اليهود: وكانوا عبرانيين، ولكنهم اصطبغوا بالصبغة العربية في الزىّ، واللغة، والحضارة، حتى صارت أسماؤهم وأسماء قبائلهم عربية، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة زواج وصهر، إلا أنهم احتفظوا بعصبيتهم الجنسية فكانوا يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية – اليهودية، وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات، وعتو، وفساد، يُلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة، وكان في يثرب منهم ثلاث قبائل مشهورة هم:

بنو قينقاع: وكانوا حلفاء الخزرج، وديارهم داخل المدينة.

بنو النضير: وكانوا حلفاء الخزرج، وديارهم بضواحي المدينة.

بنو قريظة: وكانوا حلفاء الأوس، وديارهم بضواحي المدينة وهذه القبائل الثلاث هي التي كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد.

بناء المسجد: أول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو بناء المسجد النبوي، واختار له المكان الذي بركت فيه ناقته، وأسهم في بنائه بنفسه، ولم يكن المسجد موضوعا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقى وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما فرقت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وكان برلمانا لعقد المجالس الاستشارية، وكان أيضا دارا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين.

الأذان: شُرع الأذان ليُعلن كل يوم خمس مرات بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وقد تشرف برؤيته في المنام أحد الصحابة الأخيار وهو عبد الله ابن زيد بن عبد ربه رضي الله عنه، فأقره النبي ﷺ، وقد وافقت رؤياه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأقره النبي ﷺ.

المؤاخاة بين المسلمين: لقد قام رسول الله ﷺ بعمل من أروع ما يأثره التاريخ، وهو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ، بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك وكانوا تسعين رجلا آخى بينهم على المواساة، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين غزوة بدر فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة.

ميثاق التحالف الإسلامي

بعد المؤاخاة، قام ﷺ بعقد معاهدة أزاح بها ما كان بينهم من حزازات في الجاهلية، وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة، استطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية[2] شاملة.

المعاهدة مع اليهود: عقد رسول الله ﷺ معاهدة قرر لليهود فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال.

بنود المعاهدة

١- أن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.

٢- أن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣- أن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤- وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

٥- وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٦- وأن النصر للمظلوم.

٧- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٥.

(٢) مسلم: (فضائل الصحابة باب المؤاخاة) وصحيح البخاري: (الكفالة) ح (٢٢٩٤، ٦٠٨٣، ٧٣٤)، صحيح مسلم: (٤/ ١٩٦ ح (٢٥٢٩) وسنن أبي داود ح ٢٩٢٦، والأدب المفرد: ح٥٦١.

٨- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٩- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ.

١٠- وأنه لا تُجَارُ قريش ولا من نصرها.

١١- وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، على كل الناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

١٢- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[١].

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية عاصمتها المدينة، ورئيسها - إن صح هذا التعبير - رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين.

استفزازات قريش

كتبت قريش إلى عبد الله بن أُبي بن سلول وكان إذ ذاك مُشركا كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم إنكم آويتم صاحبنا وإنا نُقسم بالله لتقاتلُنّه أو لتُخرِجُنَّه أو لنسيرَن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مُقَاتِلتكَم، ونستبيح نساءَكم[٢].

واجتمع ابن سلول مع من كان معه من عبدة الأوثان لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال لهم: "لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم" فلما سمعوا ذلك تفرقوا[٣]، وتلك حكمة النبي ﷺ، كانت تطفئ نار شرهم حينا بعد حين[٤].

الإذن بالقتال: أنزل الله تعالى الإذن بالقتال ولم يفرضه عليهم قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[٥]، فلما نزل الإذن بالقتال رأى

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٠٣، ٥٠٤.

(٢) أبو داود، باب خبر النضير ٢/ ١٥٤.

(٣) نفس المصدر.

(٤) أنظر: صحيح البخاري ٢/ ٦٥٥، ٦٥٦، ٩١٦، ٩٢٤.

(٥) سورة الحج آية ٣٩.

رسول الله ﷺ، أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيسي الذي تسلكه قريش من مكة إلى الشام في تجارتهم، واختار لذلك خطتين:

الخطة الأولى: عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذا الطريق.

الخطة الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق، وفيما يلي بيان بهذه السرايا بإيجاز:

١- سرية سيف البحر: في رمضان سنة ١هـ.

٢- سرية رابغ: في شوال سنة ١هـ.

٣- سرية الخرار: وهو موضع بالقرب من الجحفة في ذو القعدة سنة ١هـ.

٤- غزوة الأبواء: أو - ودّان في صفر سنة ٢هـ.

٥- غزوة بُواط: في ربيع الأول سنة ٢هـ.

٦- غزوة سَفَوان: ربيع الأول سنة ٢هـ.

٧- غزوة ذى العُشيرة: جمادى الآخر سنة ٢هـ.

٨- سرية نخلة: رجب سنة ٢هـ.

فَرض القتال في شعبان سنة ٢هـ

قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1]

تحويل القبلة في شعبان سنة ٢هـ

أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام.

غزوة بدر الكبرى في ١٧ رمضان سنة ٢هـ

وهي أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة، انتهت بهزيمة ساحقة للمشركين، وبفتح مبين للمسلمين، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلا، أما

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٠.

المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة وقتل منهم سبعون، وأُسر سبعون وعامتهم من القادة والزعماء والصناديد، أما باقي قريش ففروا من ساحة بدر في صورة غير منتظمة، وتبعثروا في الوديان والشعاب، واتجهوا صوب مكة مذعورين.

وهي أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة انتهت بهزيمة ساحقة للمشركين، وبفتح مُبين للمسلمين وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلًا، أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة وقُتِلَ منهم سبعون، وأُسر سبعون، وعاقُهم من القادة والزعماء والصناديل أما باقى قريش ففروا من ساحة بدر في صورة غير مُنتظمة، وتبعثروا في الوديان والشعاب واتجهوا صوب مكه مذعورين.

فرض صيام رمضان والزكاة في سنة ٢هـ

في السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان، وفرضت الزكاة... أي زكاة الفطر، وبُينت أنصبة الزكاة الأخرى، وبعد الرجوع من غزوة بدر نقلت استخبارات إلى النبي ﷺ، أن بني سُليم وغطفان تحشد قواتها لغزو المدينة، وأيضا نقض اليهود العهد وبدءوا بالتحرش بالمسلمين وأيضا استفزازات كفار قريش وعلى رأسهم أبو سفيان فكانت الغزوات التالية:

١- غزوة بني سُليم بالكُدْر في شوال سنة ٢ هـ.

٢-غزوة بني قينقاع في شوال سنة ٢هـ.

٣- غزوة السويق في ذي الحجة سنة ٢ هـ.

٤- غزوة ذى أمر في المحرم سنة ٣هـ.

٥- غزوة بحران في ربيع الآخر سنة ٣هـ.

٦- سرية زيد بن حارثة في جمادى الآخرة سنة ٣هـ.

وهذه السرية كانت آخر وأنجح دورية قتال قام بها المسلمون قبل غزوة أُحد.

غزوة أُحد في شوال سنة ٣ هـ

كانت قريش تحترق غيظا مما أصابها في غزوة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف فكانت تريد الانتقام وأخذ الثأر، ففتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة

في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة، وأهل تهامة فكان على رأسهم أبو سفيان، واجتمع ثلاثة آلاف من قريش والحلفاء، وتحركوا إلى المدينة، ودارت المعركة، وظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطرا على الموقف حتى خارت عزائم المشركين، وانكسرت همتهم ولجئوا إلى الفرار.

غلطة الرماة الفظيعة

بينما كان الجيش الإسلامي يسجل نصرا ساحقا على أهل مكة، وقعت غلطة الرماة الفظيعة والتي قلبت الوضع تماما، وأدت إلى إلحاق الخسائر بالمسلمين، وسنبينها بشيء من التفصيل.

خطة الدفاع

عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وهيأهم صفوفا للقتال واختار منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلا، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الشمالية عُرف فيما بعد "بجبل الرماة" وقال لقائدهم عبد الله بن جبير "أنضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قِبلك"[1] وقال ﷺ: "إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطئناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم"[2].

وبتعيين هذه الفصيلة، ومع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ، الثغرة الوحيدة التي كان يمكن أن يتسلل من ورائها المشركون إلى صفوف المسلمين ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جدا، تتجلى فيها عقبريه قيادة النبي ﷺ العسكرية، وكانت هذه الفصيلة يدا بيضاء في إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامي، إلى أن رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو فغلبت عليهم أثارة من حب الدنيا فغادر أربعون رجلا أو أكثر مواقعهم من الجبل لجمع الغنائم. وهكذا خلت ظهور المسلمين، وانتهز المشركون الفرصة فكرّوا بسرعة خاطفة وانقضوا على المسلمين، وأُحيط بهم من الأمام والخلف ووقعوا بين شِقّى الرَّحَى. وذلك لعدم تنفيذهم أوامر النبي ﷺ.

---

(١) انظر ابن هشام ٢/ ٦٥، ٦٦.

(٢) رواه البخاري وأحمد والطبراني والحاكم عن ابن عباس انظر فتح الباري ٧/ ٣٥٠.

موقف النبي ﷺ الباسل إزاء عمل التطويق

وهنا تجلّت عبقرية النبي ﷺ، وشجاعته المنقطعة النظير، فقد رفع صوته ينادى أصحابه: "إليّ عباد الله" وطمع المشركون في القضاء على النبي ﷺ[1] عندما سمعوا صوته، واحتدم القتال حوله ﷺ وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكُلمَت شفته السفلى، وشُج في جبينه وضُرب على عاتقه ضربة عنيفة، ثم ضرب على وجنته الشريفة ضربة عنيفة حتى دخلت حلقتان من حَلق المِغْفر في وجنته، وسقط ﷺ في حفرة من الحفر فجُحِشت ركبته، وقع كل هذا بسرعة هائلة، ولكنه وسط هذا القتال المرير والتركيز الشديد عليه ﷺ، استطاع أن يشق الطريق إلى جيشه المطوّق ويأخذ بهم إلى الإنسحاب، المنظم وسط هجوم المشركين لعرقلة الإنسحاب وفي النهاية نقول إن غزوة أُحد كانت حربا غير منفصلة، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة ثم حاد كل منهما عن القتال من غير أن يفر عن ساحة القتال وأن كلا منها رجع غير غالب، وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[2]. تلك هي غزوة أُحد.

غزوة الأحزاب في شوال سنة ٥ هـ

لقد شرع اليهود في التآمر من جديد على المسلمين فخرج عشرون رجلا من زعماء اليهود وسادات بني النضير على قريش ليُحرّضوهم على غزو رسول الله ﷺ فأجابوهم، ثم خرج وفد إلى غطفان فاستجابوا لذلك ثم طاف الوفد في قبائل العرب فاستجاب له من استجاب، وعلى أثر ذلك خرج من الجنوب، قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تِهامة، وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف، ووافاهم بنو سُليم ومن الشرق قبائل غطفان وبنو فزارة، وبنو مُرة، وبنو أشجع، وبنو أسد وغيرها، واتجهوا نحو المدينة في جيش عَرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، وسارع رسول الله ﷺ، إلى عقد مجلس استشاري تناول فيه خطة الدفاع عن كيان المدينة، واتفقوا على اقتراح قدمه الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك، وتم حفر الخندق حسب الخطة، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلْع فتحصنوا به، والخندق كان بينهم

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٥٢٧ / ٢/ ٥٨١.

(٢) سورة النساء آية ١٠٤.

وبين الكفار، ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين وجدوا خندقا يحول بينهم، ولما حاولوا اقتحام الخندق رشقوهم بالنبال وناضلوهم أشد النضال، وأخلصوا في الدعاء إلى الله تعالى، وابتهل رسول الله ﷺ إلى ربه عز وجل قائلا: "اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم"[1]، فأرسل الله عليهم ريحا وجنودا من الملائكة، فزلزلوا وقذف في قلوبهم الرعب، وكفأت الريح قدورهم، وقلعت خيامهم، وضربهم البرد القارس، فبدءوا يتهيئون للرحيل.

وفي النهاية نقول: إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خاسرة بل كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال مرير لكنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخَضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أي قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة.

عُمرة الحديبية في أول ذي القعدة سنة ٦ هـ

خرج رسول الله ﷺ، في أول ذي القعدة في ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، وساق معه الهدى، ليعلم الناس أنه لم يخرج محاربا، بل خرج معتمرا، فلما بلغ ذا الحُليفة قلّد الهدى وأحرم بالعمرة، وسار حتى بلغ عسفان، فأُخبر أن قريشا مجموعون على القتال، وصَدّ المسلمين عن البيت الحرام، فأرسل النبي ﷺ، عثمان بن عفان رضي الله عنه لكي يُعلم قريشا أنهم ما جاءوا إلا لأداء العمرة، ولكن قريشا حبسته ثلاثة أيام حتى يتشاوروا فيما بينهم ثم يرسلوه مع الجواب، وشاع بين المسلمين أن عثمان قتل، فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك قال: "لا نبرح حتى نُناجز القوم".

بيعة الرضوان

دعا رسول الله ﷺ الناس وهو تحت شجرة، أن يُبايعوه على القتال، فبايعوه بحماس على الموت، وعلى ألا يفروا، وبعد انتهاء البيعة جاء عثمان بن عفان رضي الله عنه وأنزل الله تعالى في فضل هذه البيعة: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[2] ومن هنا سميت هذه البيعة "بيعة الرضوان".

---

(١) ابن هشام ٣/ ٣٣٠، ٣٣١.

(٢) سورة الفتح آية ١٨.

عقد صلح الحُديبية

سمعت قريش بهذه البيعة فداخلهم الرعب، وأسرعوا بإرسال "سُهيل بن عمرو" لعقد الصلح، وتكلم طويلا ثم اتفقا على قواعد الصلح وهي:

١- الرسول ﷺ يرجع من عامه، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثا، معهم سلاح الراكب، والسيوف في القُرُب، ولا يتعرض لهم بأي نوع من أنواع التعرض.

٢- وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين.

٣- من أراد أن يدخل في عهد محمد ﷺ دخل فيه ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

٤- من التجأ من قريش إلى المسلمين يرده المسلمون إلى قريش ومن التجأ من المسلمين إلى قريش لا ترده إلى المسلمين[١]، ولما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب قال للمسلمين: "قوموا فانحروا" فما قام أحد، حتى قالها ثلاث مرات، فما قام أحد فدخل على السيدة أم سلمة رضي الله عنها فذكر لها ذلك، فأشارت إليه أن يقوم هو فينحر بدنهَ ويحلق رأسه، ولا يكلم أحدا، ففعل، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وحلقوا.

أثر صلح الحديبية

كان لهذا الصلح أثر كبير في تسيير الدعوة الإسلامية، فقد وجد المسلمون فرصة للقاء العرب عامة، ودعوتهم إلى الله فقد بلغ عددهم في عامين ما لم يبلغ خلال تسعة عشر عاما فبعد أن أبرم الصلح مع قريش وأمِن جانبهم، بدأ بإرسال الكتب إلى الملوك والأمراء، يدعوهم فيها إلى الإسلام[٢] وهذه هي الكتب بإيجاز.

مكاتبة الملوك والأمراء في آخر سنة ٦ هـ

١- الكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة في المحرم سنة ٧ هـ.

٢- الكتاب إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٨٠، وصحيح مسلم باب صلح الحديبية ٢/ ١٠٥.

(٢) رحمة للعالمين ١/ ١٧١.

٣- الكتاب إلى كسرى ملك فارس.

٤- الكتاب إلى قيصر ملك الروم.

٥- الكتاب إلى المنذر بن سَاوَى - ملك البحرين.

٦- الكتاب إلى هَوْذة بن على صاحب اليمامة.

٧- الكتاب إلى الحارث بن أبى شَمَّر الغسانى صاحب دمشق.

٨- الكتاب إلى ملك عمان.

٩- الكتاب إلى أمير بُصرى.

وبهذه الكتب كان النبي ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر ولكنه شغل فكر هؤلاء الكافرين وعُرف لديهم باسمه ودينه.

غزوة خيبر في المحرم سنة ٧ هـ

خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر، ونادى في الناس ألا يخرجوا معه إلا رغبة في الجهاد، فلم يخرج معه إلا أصحاب الشجرة[١]، وكانوا ألفا وأربعمائة، وخيبر تقع على بعد ١٧١ كيلومترا شمال المدينة، غنم المسلمون مغانم كثيرة بعد فتح خيبر، ويدل على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخاري عن ابن عمر قال: ماشبعنا حتى فتحنا خيبر، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما فُتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر[٢]، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل[٣].

أمر الشاة المسمومة

لما اطمأن رسول الله ﷺ، بخيبر بعد فتحها أهدت له امرأة يهودية وهي زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، شاة مصليّة[٤] وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ فقيل لها الذراع، فأكثرت فيها السُمّ، ثم وضعت السُمّ في سائر الشاة، ثم جاءت بها،

---

(١) أصحاب الشجرة: أي أصحاب بيعة الرضوان أنظر فتح الباري ٧/ ٤٦٥، وزاد المعاد ٢/ ١٣٣.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٦٠٩.

(٣) زاد المعاد ٢/ ١٤٨، وصحيح مسلم ٢/ ٩٦.

(٤) مصلية: أي مشوية.

فلما وضعتها بين يدى رسول الله ﷺ، تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسغها ولفظها، ثم قال: "إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم"[1] ثم دعا بها فاعترفت، فقال ﷺ: "ما حملك على ذلك؟" قالت: قلت إن كان ملكا استرحنا منه، وإن كان نبيا فسيُخبر، فتجاوز عنها، وكان معه بشير بن البراء بن معرور أخذ منها أكلة فأساغها فمات منها، فلما مات بشير قتلها قصاصا.

عمرة القضاء: في ذي القعدة سنة ٧هـ

قال الحاكم: تواترت الأخبار أن النبي ﷺ، لما هلّ ذو القعدة، أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، ولا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا وخرج معهم آخرون فكانو ألفين.

غزوة مؤتة جمادى الأولى سنة ٨ هـ

بعد رجوع النبي ﷺ من عمرة القضاء، أرسل عدة سرايا إلى جهات متعددة، أهمها سرية مؤتة.

سبب المعركة

أن رسول الله ﷺ، بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بُصرْى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني وكان عاملا على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر – فأوثقه رباطا ثم ضرب عنقه، وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك، اشتد عليه، وجهز جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل[2].

أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم

أمّر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة وقال: إن قتل زيد، فجعفر بن أبي طالب، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة"[3]، وأوصاهم أن يدعوا من هناك إلى الإسلام

---

(١) أنظر: زاد المعاد ٢/ ١٣٩، ١٤٠، وفتح الباري ٧/ ٤٩٧، وأصل القصة مروية في صحيح البخاري مطولا ومختصرا: ١/ ٤٤٩، ٢/ ٦١٠، ٨٦٠ وابن هشام ٢/ ٣٧٧.

(٢) زاد المعاد ٢/ ١٥٥، وفتح الباري ٧/ ٥١١.

(٣) صحيح البخاري: باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/ ٦١١.

فإن أبوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم: "اغزوا بسم الله، في سبيل الله، من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تقتلوا وليدا، ولا امرأة، ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا لصومعة، ولا تقطعوا نخلا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء"[1].

بداية القتال

تحرك الجيش الإسلامي إلى أرض العدو حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية يقال لها "مشارف" ثم انحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وتعبأ الجيش ثم دارت معركة عنيفة رهيبة – ثلاثة آلاف مقاتل يواجهون جيشا كبيرا يبلغ مائتي ألف مقاتل أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل وقاتل حتى خر شهيدا في سبيل الله، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فقاتل وقاتل حتى قطعت يمينه وأخذ الراية بشماله فلم يزل رافعا لها حتى قطعت شماله فاحتضنها بعضديه إلى أن قتل بعدما أصابته بضع وتسعون من طعنة ورمية، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، فلم يزل يقاتل حتى قُتل.

الراية إلى سيف من سيوف الله

أخذ الراية خالد بن الوليد بعد أن اصطلح المسلمون عليه فقد روى البخاري عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية[2]، وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة، مخبرا بالوحي قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال، فوقف وهو في المدينة يصف المعركة وهي بالشام مباشرة في وقتها فقال: "أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ الراية جعفر فأصيب، ثم أخذ الراية بن رواحة فأصيب – وعيناه تذرفان – حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، فتح الله عليه"[3].

وفي النهاية نقول أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان ثم انحاز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات مطاردة وذلك بمكيدة حربية ذكية ثم عادوا إلى المدينة سالمين[4].

---

(١) مختصر السيرة ص٣٢٧، والحديث مروي بغير القصة في صحيح مسلم وسنن ابو داود والترمذي وابن ماجه.
(٢) صحيح البخاري: باب غزوة مؤتة بأرض الشام ٢/ ٦١١.
(٣) نفس المصدر.
(٤) أنظر: فتح الباري ٧/ ٥١٣أ٤ ا٥ وزاد المعاد ٢/ ١٥٦.

فتح مكة المكرمة رمضان سنة ٨ هـ:

سبب الغزوة:

قدمنا في وقعة الحديبية أن بندا من بنود المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءا من ذلك الفريق، وحسب هذا البند دخلت خُزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبيلتين عداوة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ووقعت الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر، اغتنمها بنو بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرجت جماعة من بنى بكر فأغاروا على خُزاعة ليلا فأصابوا منهم رجالا، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش، ولما علم رسول الله ﷺ بذلك قال: "والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي به".

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح

لا شك أن ما فعلته قريش وحلفاؤها كان غدرا ونقضا صريحا للميثاق – لذلك قررت قريش أن تبعث قائدها أبو سفيان ممثلا لها ليقوم بتجديد الصلح. وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش قال: "كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد المدة". وفعلا قدم أبو سفيان وحاول أن يكلم رسول الله ﷺ، ولكن الرسول لم يرد عليه شيئا وكذلك أبو بكر وعمر وعليّ رضي الله عنهم فرجع إلى مكة ولم يحقق ما جاء من أجله.

الجيش الإسلامي يتحرك إلى مكة

غادر رسول الله ﷺ المدينة متجها إلى مكة ومعه عشرة آلاف من المسلمين، ولما وصل دخل المسجد الحرام والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (١).

والأصنام تتساقط على وجوهها، ثم دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففُتحت فدخلها ثم أمر بما فيها من الأصنام فأُخرجت وكُسِّرت وأُمر بما فيها من

(١) سورة الإسراء آية ٨١.

الصور فمحيت، ثم صلى فيها ركعتين، ثم دار في البيت وكبر في نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفا ينتظرون ماذا يصنع؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته فقال: "يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟" قالوا خيرا: أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، قال: "لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء"، ثم دعا عثمان بن طلحة فقال له: "هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء" وفي رواية ابن سعد: "خذها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف"[1]، ونادى مناديه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنما إلا كسره، ثم أرسل كلا من خالد بن الوليد ليهدم العُزى وهيكلها، وعمرو بن العاص ليهدم سُواع وهو على بعد ١٥٠ كيلو شمال شرقي مكة ثم سعيد بن زيد ليهدم مناة وهي صنم كلب وخزاعة وغسان والأوس والخزرج.

غزوة حُنين في شوال سنة ٨هـ

لما تم فتح مكة اجتمعت أشراف قبائل قيس عيلان للشورى وفي مقدمتها هوازن وثقيف، فقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه، ولا ناهية له عنا، فلنغزه قبل أن يغزونا فأجمعوا أمرهم للحرب.

الرسول ﷺ يُغادر مكة إلى حُنين

علم رسول الله ﷺ بتجمع القبائل وفي مقدمتها هوازن وثقيف، فخرج من مكة ومعه اثنا عشر ألف مقاتل إلى حُنين وكان مالك بن عوف هو القائد العام لقبائل ثقيف وهوازن قد سبق المسلمين فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي وفرقهم في الطرق والمداخل والشعاب والمضايق، وأمرهم أن يرشقوا المسلمين عندما يصلون إليهم ثم يشدوا شدة رجل واحد.

الجيش الإسلامي يباغت بالرماة والمهاجرين

استقبل المسلمون وادي حُنين، وشرعوا ينحدرون فيه وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو في مضايق هذا الوادي فبينما ينحطون إذ أمطرت عليهم النبال، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، فهمّ المسلمون راجعين فكانت هزيمة منكرة، وانحاز

---

(١) طبقات ابن سعد.

رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول: "هلموا إليّ أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله" روى الترمذي عن ابن عمر قال: لقد رؤينا يوم حنين وإن الناس لمولين، وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل[1].

فاجتمع حوله جمعٌ عظيم وأنزل الله سكينته على رسول الله وعلى المؤمنين[2]، وأنزل الله جنودا لم يروها فكرّ المسلمون واحتدم القتال وأخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها وجوه الأعداء وقال: "شاهت الوجوه" فتفرقوا وهربوا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

هزيمة العدو الساحقة

ما هي إلا ساعات قلائل – بعد رمي القبضة، حتى انهزم العدو وصارت طائفة منهم إلى الطائف، وطائفة إلى نخلة – فذهب إليهم جيش المسلمين فهزموهم وغنموا منهم غنائم كثيرة ثم ذهبوا إلى الطائف التي فر إليها معظم ثقيف وهوازن وتحصنوا بها وفرض المسلمون عليهم الحصار وفي النهاية عندما استعصى الحصن المحاصر وأصيب المسلمون بما أصيبوا أمر رسول الله ﷺ برفع الحصار والرحيل، ورجع المسلمون وقسم رسول الله ﷺ الغنائم عليهم ثم أهلّ معتمرا منها فأدى العمرة ثم رجع إلى المدينة[3].

غزوة تبوك رجب سنة ٩هـ

سبب الغزوة

إن غزوة مؤتة كان لها تأثير سيئ على سمعة الرومان فرأوا أن يقوموا بغزوة حاسمة يقضون بها على المسلمين في عقر دارهم المدينة المنورة.

تهيؤ المسلمين للقاء الرومان

سمع رسول الله ﷺ بتجمع الرومان واستعدادهم فاستنفر المسلمين في كل مكان، وأعلن عن جهة الغزوة صراحة ليأخذ الناس عدتهم الكاملة إذ كان الوقت وقت حر شديد وحثّ الموسرين على تجهيز المعسرين.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ١/ ٤٥٣، ٤٥٤، والحاكم ٢/ ١١٧ والترمذي في الجهاد باب ما جاء في الثبات عند القتال ٤/ ١٧٣ ج١٦٨٩ وفتح الباري ٨/ ٢٩، ٣٠ ومسند أبي يعلى ٣/ ٣٨٨.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٠٠.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٨ وزاد المعاد ٢/ ١٦٠ ٢٠١ وابن هشام ٢/ ٣٨٩ ١ - ٥٠١ وصحيح البخاري ٢/ ٦١٢ ‖ ٦٢٢ وفتح الباري ٨/ ٣-٥٨.

المسلمون يتسابقون إلى التجهيز للغزوة

تقدم المسلمون بما لديهم، وأول من جاء بماله كله أبو بكر رضي الله عنه أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله، وأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه مالا كثيرا يقال: عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير بأجلاسها وأقتابها، وأعطى خمسين فرسا[1]، ويقال أنه أعطى تسعمائة بعير ومائة فرس، وقال فيه رسول الله ﷺ: "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم" وجاء عبد الرحمن بن عوف والعباس وطلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة وغيرهم بمال كثير، وأرسلت النساء ما قدرن عليه من الحُلِيّ وجاء فقراء الصحابة يطلبون أن يحملهم فقال كما حكى لنا القرآن الكريم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[2]، فجهزهم عثمان بن عفان والعباس وغيرهم رضي الله عنهم.

وصول الجيش الإسلامي إلى تبوك

تحرك رسول الله ﷺ، ومعه ثلاثون ألف مقاتل، ولم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع قبله قط فعكسر الجيش الإسلامي بتبوك، وهو مستعد للقاء العدو، رغم ما كانوا يعانونه من قلة الزاد والمراكب ولذلك سُمِّيَ هذا الجيش "جيش العُسْرة" فقام رسول الله ﷺ، فيهم خطيبا، فخطب خطبة بليغة، أتى بجوامع الكلم وحض على خير الدنيا والآخرة وحذر وأنذر، وبشر وأبشر، حتى رفع معنوياتهم، أما الرومان وحلفاؤهم لما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ، أخذهم الرعب، فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا في البلاد فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية.

هدم مسجد الضرار

كان المنافقون قد بنو بقباء مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي لهم فيه فقال: إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله وقبل الوصول إلى المدينة بيوم أو بعض يوم، وهم في طريق العودة من تبوك، نزل جبريل عليه السلام بخبر المسجد، فبعث رسول الله ﷺ من أحرقه وهدمه.

---

(١) جامع الترمذي: مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ٢/ ٢١١.

(٢) سورة التوبة آية ٩٢.

حجة الوداع في ذي القعدة سنة ١٠هـ

لما أراد رسول الله ﷺ الحج أذّن به في الناس فاجتمع بشر كثير[١]، ولخمس بقين من ذي القعدة تهيأ النبي ﷺ للرحيل[٢]، وانطلق حتى بلغ ذا الحليفة فبات فيها فلما أصبح قال لأصحابه: "أتاني الليلة آت من ربي فقال: صلّ في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة في حجة"[٣] ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة في مصلاه وقرن بينهما، ثم واصل سيره حتى وصل مكة ولما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة ولم يحلّ، لأنه كان قارنا قد ساق معه الهدى – ويوم التروية توجه إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر خمس صلوات ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس فأجاز حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زالت الشمس، أتى بطن الوادي، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أوأربعة وأربعون ألفا من الناس وألقى خطبة قال: "أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا"[٤] وقال أيضا: "وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله"[٥] وقال في نهاية الخطبة: "أيها الناس، إنه لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم ألا فاعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم، وحجوا بيت ربكم وأطيعوا أولات أمركم تدخلوا جنة ربكم"[٦] "وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟" قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، قال: "اللهم اشهد"[٧] ثلاث مرات، وبعد الفراغ من الخطبة نزل قوله تعالى:

---

(١) رواه مسلم عن جابر: باب حجة النبي ﷺ ١/ ٣٩٤.

(٢) أنظر: فتح الباري ٨/ ١٠٤.

(٣) رواه البخاري عن عمر ١/ ٢٠٧.

(٤) ابن هشام ٢/ ٦٠٣.

(٥) صحيح مسلم: باب حجة النبي ﷺ ١/ ٣٩٧.

(٦) رواه ابن جرير وابن عساكر، أنظر: معدن الأعمال ح ١١٠٨/ ١١٠٩.

(٧) رواه مسلم ١/ ٣٩٧.

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1] وأذّن بلال بعد الخطبة ثم أقام فصلى بالناس الظهر ركعتين ثم أقام فصلى العصر ركعتين جمعهما في وقت واحد جمعا مقدما، ثم أتى الموقف، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس، ثم دفع حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء، ثم اضطجع حتى الفجر، فصلى الفجر، ثم أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، ودعا وكبّر وهلّل ووحّد ثم دفع إلى منى قبل أن تطلع الشمس حتى أتى الجمرة الكبرى، فرماها بسبع حصيات ثم قطع التلبية، ووقف عند هذه الجمرة يقول: "خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا" ثم أتى منزله بمنى فنحر ثلاثا وستين بدنة بيده ثم نحر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بقية المائة، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر وطبخت، فأكلوا من لحمها، وشربوا من مرقها ثم دعا الحلاق، فحلق ثم لبس ثيابه وتطيب قبل أن يطوف ثم أتى البيت الحرام فطاف طواف الإفاضة ثم رجع ﷺ إلى منى فمكث بها ليالي التشريق الحادي عشر والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة – يرمي الجمرات الثلاث كل يوم، وقد خطب خطبة يوم النحر[2]، ثم خطبة في أوسط أيام التشريق، ثم نفر من منى إلى البيت فطاف طواف الوداع وصلى الفجر ثم انصرف متوجها إلى المدينة.

بعث أسامة بن زيد في ربيع الأول سنة ١١ هـ

بعد عودته ﷺ إلى المدينة، استقبل بعض الوفود وجهز أسامة بن زيد في سبعمائة مقاتل[3] إلى أرض فلسطين وتحرك أسامة، وعلى بعد ثلاثة أميال من المدينة، نقلت إليه أخبار مقلقة عن مرض رسول الله ﷺ فتريث ولكن جاء قضاء الله بوفاة النبي ﷺ، ثم أصر أبو بكر رضي الله عنه على هذا البعث، وكان أول بعث في عهد أبو بكر الصديق رضي الله عنه[4].

أوائل صفر سنة ١١ هـ

خرج رسول الله ﷺ، إلى جبل أُحد، فصلى على الشهداء كالمودّع للأحياء والأموات، ثم

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

(٢) رواه أبو داود: باب أي وقت يخطب يوم النحر ١/ ٢٧٠.

(٣) صحيح البخاري: باب بعث النبي ﷺ أسامة ٢/ ٦١٢.

(٤) نفس المصدر السابق، وابن هشام ٢/ ٦٠٦، ٦٥٠.

انصرف إلى المنبر فقال: "إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلي حوضي الآن، وإني أُعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها"[1].

بداية المرض

في اليوم الثامن، أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هـ شهد رسول الله ﷺ، جنازة في البقيع، فلما رجع في الطريق أخذه صداع في رأسه واتّقدت الحرارة، وقد صلى بالناس وهو مريض ١١ يوما وجميع أيام المرض كانت ١٣ أو ١٤ يوما.

الأسبوع الأخير

ثقُل برسول الله ﷺ المرض، فجعل يسأل أزواجه: "أين أنا غدا" ففهمن مراده، فأذنّ له أن يكون حيث شاء، فانتقل إلى بيت السيدة عائشة رضي الله عنها، يمشي بين الفضل بن العباس، وعليّ بن أبي طالب، عاصبا رأسه حتى دخل بيتها، فقضى عندها آخر أسبوع في حياته.

قبل الوفاة بخمسة أيام

قبل الوفاة بخمسة أيام، اتقدت حرارة العلّة في بدنه فاشتد الوجع وغُمى فقال: "هريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم" فأقعدوه في مخضب[2]، وصبوا عليه الماء حتى طفق يقول: "حسبكم، حسبكم" وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد متعطفا ملحفه على منكبيه، قد عصب رأسه حتى جلس على المنبر، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس إليّ" فثابوا إليه، فقال فيما قال: "لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"[3]، وقال: "لا تتخذوا قبرى وثنا يُعبد"[4] وعرض نفسه للقصاص، وأوصى بالأنصار خيرا ثم قال: "إن

---

(١) متفق عليه، وصحيح البخاري ٢/ ٥٨٥ وفتح الباري ٣/ ٢٤٨ (١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٤٢، ٤٠٨٥، مسلم: الفضائل).

(٢) مخضب: آنية.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٦٢٠، وموطأ الإمام مالك ص٣٦٠.

(٤) موطأ الإمام مالك ص٦٥.

عبدا خيّره الله بين أن يُؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده" قال أبو سعيد الخدري: فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا.

قبل الوفاة بأربعة أيام

اشتد به الوجع وكان ﷺ يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم – الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام وعند العشاء زاد ثقل المرض، فما استطاع الخروج إلى المسجد فأرسل إلى أبي بكر رضي الله عنه أن يصلي بالناس فصلى بهم رضي الله عنه.

قبل الوفاة بيوم أو يومين

يوم السبت أو الأحد، وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر رضي الله عنه يصلي بالناس فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ بألا يتأخر، وقال: أجلساني إلى جنبه فأجلساه إلى يساره فكان أبو بكر رضي الله عنه يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ، ويسمع الناس التكبير[1].

قبل الوفاة بيوم

يوم الأحد أعتق ﷺ غلمانه، وتصدق بستة أو سبعة دنانير كانت عنده[2]، ووهب للمسلمين أسلحته.

آخر يوم

روى أنس بن مالك: أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين، وأبو بكر رضي الله عنه يصلي بهم – كشف رسول الله ﷺ، ستر الحجرة – أي حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها، فنظر إليهم، ثم ابتسم يضحك فتأخر أبو بكر رضي الله عنه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة قال أنس: وهمّ المسلمون أن يُفتتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر[3]، ولما ارتفع الضحى دعا السيدة فاطمة فسارّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارّها بشيء فضحكت، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها فسألناها عن ذلك – أي فيما

---

(١) صحيح البخاري، وفتح الباري ٢/ ١٩٥، ٢٣٨، ٢٣٩، ح٦٨٣، ٧١٢، ٧١٣.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٢٣٧.

(٣) طبقات ابن سعد ٢/ ٢٣٩.

بعد قالت: سارّني أنه يُقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت[1]، وبشرها أي فاطمة "بأنها سيدة نساء العالمين"[2]، ورأت السيدة فاطمة ما برسول الله ﷺ، من الكرب الشديد الذي يتغشاه فقالت: واكرباه! فقال لها رسول الله ﷺ: "ليس على أبيك كرب بعد اليوم"[3] ودعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيرا، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن وطفق الوجع يشتد ويزيد وكان آخر ما تكلم وأوصى به الناس قال: "الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم"[4]

الاحتضار

وبدأ الاحتضار فأسندته السيدة عائشة رضي الله عنها إليها وكانت تقول: أي فيما بعد، إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ، توفى في بيتي وفي يومي، وبين سحرى ونحري[5]، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته فقد دخل عبد الله بن أبي بكر وبيده السواك، فرأيته ينظر إليه فعرفت أنه يريد السواك فناولته له فاشتد عليه فقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته، وفي رواية أنه استن به كأحسن ما كان مستنا وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يده في الماء فيمسح به وجهه ويقول: "لا إله إلا الله إن للموت سكرات"[6] وما أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه، وشخص بعده نحو السقف وتحركت شفتاه فأصغت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها وهو يقول: "مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى – اللهم الرفيق الأعلى"[7].

كرر اللهم الرفيق الأعلى ثلاثا، ومالت يده، ولحق بالرفيق الأعلى، إنا لله وإنا إليه راجعون، وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٦٣٨.

(٢) ويدل بعض الروايات على أن هذا الحوار والبشارة لم تكن في آخر يوم بل كانت في آخر أسبوع الرحمة للعالمين ١ / ٢٨٢.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٦٤١.

(٤) صحيح البخاري ٢/ ٦٣٧.

(٥) سحرى – الرئة.

(٦) صحيح البخاري: باب مرض النبي ﷺ ٢/ ٦٤٠.

(٧) صحيح البخاري: باب آخر ما تكلم به النبي ﷺ ٢/ ٦٣٨ – ٦٤١.

تفاقم الأحزان على الصحابة

تسرب النبأ الفادح وأظلمت على أهل المدينة أرجاؤها وآفاقها، قال أنس: ما رأيت يوما قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ، وما رأيت يوما كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ[1]، وكلٌ لا يصدق منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أشهر سيفه على كل من قال إن النبي قد توفى وعليّ الذي لا يقوى على الوقوف وعثمان وغيرهم.

موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه

أقبل أبو بكر فدخل المسجد فلم يُكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيمم رسول الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حَبَرَة، فكشف عن وجْهه ثم أكب عليه، فقبلّه وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد مِتّها، ثم خرج فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتشهد أبو بكر رضي الله عنه فأقبل الناس إليه فقال: أما بعد... من كان منكم يعبد محمد ﷺ، فإن محمدا قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2] قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشر من الناس إلا يتلوها، وأما عمر رضي الله عنه قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفت أنه الحق، وعلمت أن النبي ﷺ قد مات[3].

التجهيز وتوديع الجسد الشريف

يوم الثلاثاء غسّلوا رسول الله ﷺ، من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل: العباس، وعليّ بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وقُثم بن العباس، وشُقران

---

(١) رواه الدارمى ٢/ ٥٤٧ مشكاة المصابيح.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤.

(٣) ابن ماجه ١/ ٥٢١.

مولى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد وأوس بن خولى، فكان العباس والفضل وقُثم يقلبونه وأسامة وشُقران يصبان الماء، وعليّ يغسله، وأوس أسنده إلى صدره[1]، وقد غُسّل ثلاث غسلات بماء وسدر، ثم كُفِّن في ثلاثة أثواب بيض سحُولية من كرسُف ليس فيها قميص ولا عمامة[2].

أدرجوه فيها إدراجا، وحفر أبو طلحة القبر، في الموضع الذي توفى فيه، وجعل القبر لحدا ثم وضع سريره على شفير القبر ودخل الناس أرسالا، عشرة فعشرة، يصلون عليه أفذاذا، لا يؤمهم أحد.

وأول من صلى عليه عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الصبيان، ثم النساء، أو النساء ثم الصبيان[3].

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملا، ومعظم ليلة الأربعاء قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا المساحى[4] من جوف الليل – وفي رواية: من آخر الليل – ليلة الأربعاء[5].

اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم واجعلنا تحت لوائه. اللهم آمين.

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد ٢/ ٢٧٧-٢٨١.

(٢) صحيح البخاري: جنائز، باب الثياب البيض للكفن، وفتح الباري ٣/ ١٦٢، ١٦٧، ١٦٨ ح (١٢٦٤، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٣٨٧) وصحيح مسلم.

(٣) أنظر: موطأ الإمام مالك: كتاب الجنائز باب ما جاء في دفن الميت ١/ ٢٣١، وطبقات ابن سعد ٢/ ٢٨٨-٢٩٢.

(٤) جمع مسحاة: وهو ما يجرف به الطين.

(٥) صحيح البخاري: مسند أحمد ٦/ ٢٦٢-٢٧٤.

خير البشر محمد ﷺ

نبذة عن النسب الشريف

هو أكرم خلق الله، وأفضل رسله، وخاتم أنبيائه، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان"[1] وعدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام – بالاتفاق.

أمه ﷺ

هي السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وكلاب هو الجد الخامس للنبي من جهة أبيه، فأبوه وأمه من أصل واحد يجتمعان في كلاب، واسمه حكيم – وقيل عُروة ولكنه كان كثير الصيد وكان له كلاب كثيرة، فعُرف بها.

قبيلته ﷺ

هي قبيلة قريش المشهود لها بالشرف ورفعة الشأن والمجد والأصل، وقداسة المكانة بين سائر العرب، وهو لقب فهر بن مالك، أو النضر بن كنانة وكل من رجالات هذه القبيلة كانوا سادات وأشراف في زمانهم، وقد امتاز منهم قصّى واسمه زيد، بعدة ميزات... فهو أول من تولى الكعبة من قريش، فكانت إليه حجابتها، وسدانتها، أي كان بيده مفتاح الكعبة يفتحها لمن يشاء ومتى يشاء وهو الذي أنشأ السقاية والرفادة.

السقاية: ماء عذب من نبيذ التمر أو العسل أو الزبيب ونحوه.

الرفادة: طعام كان يُصنع للحجاج في موسم الحج، وقد بنى قُصَيّ بيتا بشمالى الكعبة، عُرف بدار الندوة، وهي دار شورى قريش، ومركز تحركاتهم الاجتماعية، فكان لا يعقد نكاح، ولا يتم أمر إلا في هذه الدار، وكان قُصَيّ صاحب كلمة نافذة في قومه.

---

(١) أنظر: ابن هشام ١/ ١، ٢ وتاريخ الطبري ٢/ ٢٣٩-٢٧١.

أسرته ﷺ

تُعرف أسرته ﷺ، بالأسرة الهاشمية نسبة إلى جده الثاني هاشم، وقد ورث هاشم من قصّي السقاية والرفادة ثم ورثها أخوه المطلب.

هاشم

كان أعظم أهل زمانه، كان يهشم الخبز، أي يفتته في اللحم، فيجعله ثريدا، ثم يتركه ليأكل الناس، فلقّب بهاشم، واسمه عمرو، وهو الذي سنّ الرحلتين[1] رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وكان يُعرف بسيد البطحاء ومن حديثه: أنه مرّ بيثرب وهو في طريق تجارته إلى الشام فتزوج سلمى بنت عمرو بن عدىّ بن النجار، وأقام عندها فترة ثم مضى إلى الشام وهي حامل، فمات بغزة من أرض فلسطين، ثم ولدت سلمى ابنا بالمدينة سمته شيبة لشيب في رأسه[2]، ونشأ هذا الطفل بين أخواله في المدينة ولم يعلم به أعمامه بمكة حتى بلغ سبع سنين، أو ثماني سنين ثم علم به عمه المطلب، فذهب به إلى مكة فلما رآه الناس ظنوه عبدا له فقالوا: عبد المطلب فاشتهر بذلك.

جده عبد المطلب

كان أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم قدرا، وقد شرف في زمانه شرفا لم يبلغه أحد، كان سيد قريش وصاحب عير مكة، وكان شريفا مطاعا جوادا سُمىّ بالفياض لسخائه[3].

حفر بئر زمزم

تشرف عبد المطلب بحفر بئر زمزم بعد أن كان قد دسها جُرهم عند جلائهم عن مكة وكان قد أُمر بحفرها في المنام ووصف له موضعها.

حادثة الفيل

في عهد عبد المطلب جاء أبرهة الأشرم من اليمن بستين ألف جندي من الأحباش، ومعه بعض الفيلة ليهدم الكعبة فلما وصل إلى وادي مُحسّر، بين المزدلفة ومنى تهيأ للهجوم

---

(١) ابن هشام ١٣/ ١٥٧ مع الروض الأنف.

(٢) ابن هشام ١٣/ ١٣٧.

(٣) ابن هشام ١/ ١٣٧، ١٣٨ وفي تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٧.

على مكة أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكان ذلك قبل مولد النبي ﷺ بأقل من شهرين.

والده عبد الله

كان أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم وأحبهم إليه وهو الذبيح، وذلك أن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم وبدت آثارها، نازعته قريش فنذر لئن آتاه الله عشرة أبناء وبلغوا أن يمنعوه ليذبحن أحدهم فلما تم له ذلك أقرع بين أبنائه فوقعت القرعة على عبد الله، فذهب إلى الكعبة ليذبحه فمنعته قريش ولاسيما إخوانه وأخواله ففداه بمائة من الأبل، فالنبي ﷺ ابن الذبيحين إسماعيل عليه السلام، وعبد الله، واختار عبد المطلب لابنه عبد الله آمنة بنت وهب، وكانت أفضل نساء قريش شرفا وموضعا وكان أبوها وهب سيد بني زهرة، وتم الزواج وبنى بها عبد الله بمكة، فحملت رسول الله ﷺ، وبعد فترة أرسله أبوه عبد المطلب إلى المدينة أو الشام في تجارة فتوفى بالمدينة وهو عائد من الشام وذلك قبل ولادته ﷺ.

نبذة عن أخلاق النبي ﷺ

كان ﷺ، دائم البشر سهل الخلق، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، وكان أكثر الناس تبسما وأبعد الناس غضبا وأسرعهم رضاء يختار أيسر الأمرين ما لم يكن إثما، فإن كان اثما كان أبعد الناس منه، لم ينتقم لنفسه قط، وإنما كان ينتقم لله إذا انتهكت محارمه، وكان أجود الناس وأكرمهم وأشجعهم وأجلدهم وأصبرهم على الأذى وأوقرهم وأشدهم حياء، إذا كره شيئا عُرف في وجهه وكان أعدل الناس وأعفهم وأصدقهم لهجة وأعظمهم أمانة، سُمّى بالأمين قبل النبوة وكان أشد الناس تواضعا وأبعدهم عن الكبر وأوفى الناس بالعهود وأوصلهم للرحم. هذا ولا يمكن إحاطة أوصافه ﷺ بالبيان فنكتفي بهذا القدر القليل.

سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا هذه البضاعة المزجاة، وأن يوفقنا لاتباع سبيل سيد المرسلين وإمام الأنبياء والمتقين محمد ﷺ خير الخليقة أجمعين، وأن يجعلنا تحت لوائه يوم الدين آمين يا رب العالمين.

معجزات الرسول ﷺ:

١- ومن معجزات الرسول ﷺ: القرآن الكريم، الكتاب الذي فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا وحكم ما بيننا وفيه الهدى والنور وهو من أعظم ما أوتي به من المعجزات.

٢- إنشقاق[١] القمر فقد طلب الوليد بن المغيرة وغيره من كفار قريش آية ـ معجزة منه عليه الصلاة والسلام تدل على صدقه في دعوى النبوة والرسالة فانشق له القمر فرقتين: فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال لهم النبي ﷺ: أشهدوا قال بعضهم: رأيت القمر بين فرجتي الجبل.. جبل أبي قبيس ـ وقد سألت قريش أهل بلاد أخرى، هل شاهدوا إنشقاق القمر؟ فأخبروا به كما رأوه ونزل قول الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾[٢].

٣- نُطق الشجرة له عليه الصلاة والسلام، فقد دنا منه أعرابي، فقال له: يا أعرابي أين تريد؟ قال إلى أهلي. قال ﷺ هل لك إلى خير؟ فقال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله. فقال الأعرابي: من يشهد لك على ما تقول؟ فقال له ﷺ: هذه الشجرة ـ يشير إلى شجرة بشاطئ الوادي ـ فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثًا، كما قال عليه الصلاة والسلام فشهدت.

٤- حنين جذع النخلة له[٣] ﷺ وبكاؤه بصوت سمعه من في مسجده ﷺ قاطبه وذلك لما فارقه ﷺ بعد ما كان يخطب عليه كمنبر له، ولما صُنع له المنبر وترك الصعود عليه بكى حنينًا وشوقًا إليه ﷺ فقد سمع له صوت كصوت العشار[٤] ولم يسكت حتى جاءه الرسول ﷺ ووضع يده الشريفة عليه فسكت.

٥- دعاؤه ﷺ على كسرى بتمزيق ملكه فتمزق.

---

(١) أحاديث إنشقاق القمر ثابته في الصحيحين.

(٢) القمر: ١-٣.

(٣) رواية حنين الجزع ثابتة فى الصحيحين.

(٤) العشار: النوق التي مضى على حملها.

٦- دعاؤه ﷺ لابن عباس بالتفقه في الدين فكان عبد الله بن عباس حَبْر هذه الأمة.

٧- تكثير الماء بدعائه ﷺ، فقد عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة ماء يتوضأ منها وأقبل الناس نحوه وقالوا: ليس عندنا إلا ما في ركوتك فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشرب القوم وتوضؤا وكانوا ألفًا وخمسمائة نفر.

٨- الإسراء والمعراج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلى السموات العلى إلى سدرة المنتهى، وعاد إلى فراشه ولم يبرد.

الصلاة على النبي ﷺ

هي مشروعة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال الله تعالى: "إن الله وملائكته يصلون على النبي، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[1]. قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء [ذكره البخاري ص ٣٧٦ج ٨ فتح الباري] و(المقصود) من الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده: بمنزلة نبيه عنده في الملإ الأعلى، بأنه يثنى عليه عند ملائكته، وأن الملائكة تصلي عليه، وأمر عباده بأن يقتدوا بذلك ويصلوا عليه [ص ٢٩١ج ٤ فتح القدير للشوكاني].

(وظاهر الأمر) بالصلاة والتسليم في الآية أن يقول القائل: صليت وسلمت، أو الصلاة عليه والسلام، لأن الله تعالى أمرنا بإيقاع الصلاة عليه والتسليم منا فبمقتضاه ألا يتحقق الإمتثال بقول أحدنا: اللهم صل وسلم على رسولك أو على محمد، أو على النبي، لأن الله أمرنا أن نصلي ونسلم عليه لا أن نطلب منه تعالى ذلك. (أجيب) بأن النبي ﷺ بيّن أن الصلاة والتسليم المأمور بها في الآية هما أن نقول: اللهم صلي عليهم وسلم. أو نحو ذلك، (قال كعب ابن عجرة: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك، قال: قولوا: اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم انك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد [اخرجه السبعة: انظر المراجع وشرح الحديث بها من ٣ حتى ١٧٠ ج، الدين الخالص طبعة ثانية: (كيفية صلاة النبي ﷺ).

أولاً: فضل الصلاة على النبي ﷺ:

الصلاة على النبي ﷺ أفضل العبادات، لأن الله تعالى صلى عليه هو وملائكته وأمر بها المؤمنين. وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها (حديث) أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر

---

(١) الأحزاب: ٥٦.

خطيئات، ورفع له عشر درجات ـ [أخرجه الحاكم والنسائي وأحمد، وابن حِبان وصححاه.

(حديث) أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال "من سرة أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل "اللهم صلى على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته أهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد" [أخرجه أبو داود والبهيقي ص ٩٥ ج٦ المنهل العذب.

ثانيًا: حكم الصلاة على النبي ﷺ:

هي فرض وسنة وتفرض في أربعة مواضع:

١- تفرض في العمر مرة للأمر بها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ وهو للوجوب.

٢- وتفترض كلما ذكر النبي ﷺ، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "رَغِمَ أنف رجل ذُكرت عنده ولم يصل عليّ" [الحديث أخرجه أحمد والترمذي وحسنه الحاكم]. وقيل تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره وللاحتياط الصلاة عليه ﷺ عند كل ذكر [تفسير القرطبي ص ٣٣٣].

٣- وتفترض في التشهد الأخير عند الشافعي [وروى عن أحمد لما تقدم في حديث فضالة بن عبيد ٢٢٢ ص ١٦٧ج، الدين الخالص].

٤- وتجب في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية [عند الشافعي وأحمد ص ١٣٦ الدارقطني].

أما السنة

فتسن الصلاة على النبي ﷺ في مواضع كثيرة منها:

* بعد الآذان والإقامة: لما روى جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال "من قال حين ينادي المنادي: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صلى على محمد وارض عني رضا لا تسخط بعده. استجاب الله له دعوته" [أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط].

* وتسن قبل الدعاء وبعده إجماعا.

* وتسن في خطب الجمعة والعيدين والاستسقاء.

* وتسن ليلة الجمعة ويومها إجماعا لقوله ﷺ "إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة فأكثروا الصلاة علي" [أخرجه الشافعي ص ١٥١ ج ١ بدائع المنن].

* وتسن أول النهار وآخره لقوله ﷺ، "من صلى عليّ حين يُصبح عشرًا وحين يمس عشرًا أدركته شفاعتي يوم القيامة" [أخرجه الطبراني ص ١٢٠ مجمع الزوائد ١٧٠، فيض القدير].

* وتسن عند كتابة إسمه ﷺ لقوله ﷺ: "من صلى على في كتاب لم تذل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمي في ذلك الكتاب" [أخرجه الطبراني في الأوسط ص ٢٥٧ ج٢ كشف الخفاء للعجلوني].

* ويسن الإكثار من الصلاة عليه ﷺ لقوله: "من صلى على كل يوم ثلاث مرات وكل ليلة ثلاثة مرات حبا أو شوقا إلى كان حقا على الله أن يغفر له ذنوبه تلك الليلة وذلك اليوم" [أخرجه ابن أبي عاصم وذكره المنذري في الترغيب والترهيب].

* وتسن عند دخول المسجد والخروج منه، لقوله ﷺ: "إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺوليقل: "اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل اللهم أجرني من الشيطان الرجيم" [أخرجه ابن خزيمه في صحيحه وابن حبان ص ٢٦٢ جلاء الإفهام].

* وتسن عند نزول الفقر أو خوف وقوعه لقوله ﷺ: "كثرة الذكر والصلاة على تنفي الفقر" [أخرجه أبو نعيم ٤ ص ٢٩٠ جلاء الإفهام].

* وتسن في مجالس الذكر والطاعة، لقوله ﷺ لقولة "إن لله سيارة من الملائكة إذا مروا بحلقة الذكر قال بعضهم لبعض: اقعدوا، فإذا دعا القوم أَمّنوا على دعائهم. فإذا صلوا على النبي ﷺ صلوا معهم حتى يفرغوا ثم يقول بعضهم لبعض: "طوبي لهؤلاء يرجعون مغفور لهم" [أخرجه مسلم ص ٢٩٣ جلاء الإفهام].

* وتسن إذا نسى الشيء ليذكره لقوله ﷺ: "إذا نسيتم شيئا فصلوا عليّ تذكروه إن شاء الله" [أخرجه أبو موسى المديني ص ٢٩٤ جلاء الإفهام].

* وتسن لقضاء أمر هام لقوله ﷺ: "من صلى على كل يوم مائة مرة قضى الله له مائة

حاجة، سبعين منها لآخرته وثلاثين منها لدنياه" [أخرجه أبي منده وقال الحافظ أبو موسى: حديث حسن ص ٢٩٦].

* وتسن عند طنين الأذن لقوله ﷺ: "إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصل على وليقل ذكر الله بخير من ذكرني بخير" [ص ٣٩٩ج ١ فيض القدير للمناوي].

* وتسن عند دخول المنزل لقوله ﷺ: "إذا دخلت منزلك فسلم إن كان فيه أحدا أو لم يكن فيه أحد ثم سلم على واقرأ "قل هو الله أحد مرة واحدة، ففعل الرجل، فأدرّ الله عليه الرزق حتى افاد على جيرانه وأقاربه" [أخرجه أبو موسى المدني ص ٢٩٣ جلاء الإفهام].

* وتسن عند ركوب الدابة وغيرها لقوله ﷺ: "من قال إذا ركب دابة: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء سبحانه ليس له سمى، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، (قالت) الدابة بارك الله عليك من مؤمن خففت ظهري وأطعت ربك وأحسنت إلى نفسك، بارك الله لك في سفرك وأنجح حاجتك" [أخرجه الطبراني ص ١٥٥ الحرز المنيع للسيوطي].

* وتسن عند القيام لصلاة الليل، وتسن على الصفا والمروه، وتسن عند التلبية وتسن عند استلام الحجر الأسود، وتسن عند الخروج للسوق أو لأمر آخر.

ثالثًا: ثمرات الصلاة على النبي ﷺ:

١- امتثال أمر الله تعالى.

٢- موافقته تعالى في الصلاة على النبي ﷺ وإن اختلفت الصلاتان، فصلاتنا عليه دعاء، وصلاة الله عليه ثناء وتشريف.

٣- إن من صلى على النبي ﷺ مرة صلى الله تعالى عليه بها عشرا.

٤- وأنه يرفع له بها عشر درجات.

٥-ويكتب له بها عشر حسنات.

٦- ويمحي بها عشر سيئات.

٧- ويرجي بها إجابة الدعاء إذا قدمت أمامه.

٨- وأنها سبب لقرب العبد من النبي ﷺ يوم القيامة.

٩- وأنه بها يصلي الله وملائكته على المصلى.

١٠- وأنها زكاة للمصلي وطهارة له.

١١- وأنها سبب النجاة من أهوال يوم القيامة.

١٢- وأن بها يرد النبي ﷺ والسلا م على المُصلى والمُسلِم عليه.

١٣- وأن بها يطيب المجلس ولا يكون عُسرة على أهله يوم القيامة.

١٤- وأنها تنفي عن العبد إسم البخل إذا صلى على النبي ﷺ عند ذكره.

١٥- وأن بها ينجو من الدعاء عليه بالذل والهوان إذا تركها عند ذكره صلى الله عليه وسلم.

١٦- وأن بها يزداد نور العبد على الصراط.

١٧- وأنها سبب لنيل رحمة الله للمُصلى عليه ﷺ، لأن الرحمة إما معنى الصلاة أو من لوازمها، فلا بد للمصلي عليه من رحمة تناله [ص ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤ جلاء الإفهام].